

# القرآن الكريم والمفاهيم الأساسية: دراسة في تطبيقات إيزوتسو الكلامية

عبد الرحمن عبيد حسين

حفل القرن العشرون بنظريات لغوية معاصرة وحادثة وما بعدها، انصب بعضها في خدمة المناهج الوضعية الغربية بشكل خاص من قبل أتباع هذا المنهج، وطبق بعضها الآخر على الدراسات الأدبية والدينية. وكان العالم الأمريكي ذو الأصول اليابانية "توشيهيكو إيزوتسو" من المهتمين بالدراسات القرآنية وتوظيف اللغة بمنهجها الجديدة لدراسة النص القرآني. وألّف هذا الأستاذ الياباني في هذا المجال مجموعة من الكتب ترجمت إلى العربية وإلى لغات عالمية أخرى. ورأى كثير من المسلمين في مؤلفاته خدمة للدراسات القرآنية، بل ونهجوا على منواله في كثير من الأبحاث العلمية ورسائل الماجستير والدكتوراه. ودعم مكانته هذه ما راج من أقوال حول إسلامه، ومهما تكن حقيقة إسلامه فإنها لا تؤثر في القيمة العلمية لأعماله سلباً أو إيجاباً، فتقييمها لا بد أن يكون بمنأى من هذه الاعتبارات الذاتية. وأوضح إيزوتسو في مؤلفاته أنه يقدم تحليلات تتجاوز فقه اللغة التاريخي لتشكّل إسهاماً حقيقياً في دراسة البنية الأساسية للإسلام نفسه كونه واحداً من أكثر الثقافات الدينية أصالة وأهمية في العالم، فسعى إلى تحليل العملية التاريخية التي ولّدت مجموعة من المفاهيم القرآنية تحليلاً دلاليًا بوضعها جميعاً في شبكة مفهومية شكلتها مفاهيم مفتاحية إلى جانب مفهومات مرتبطة بها. وتسعى هذه الورقة إلى بسط التوظيف اللغوي والدلالي لإيزوتسو وتقييمه تقييماً علمياً، وإظهار تأثيره في سير كثير من الدراسات القرآنية المعاصرة. وفي ضوء ما تقدم، يمكن تقسيم الورقة إلى: مقدمة، والمبحث الأول: إيزوتسو وعلم دلالات اللغة، والمبحث الثاني: القرآن الكريم والمفاهيم المفتاحية لإيزوتسو، والمبحث الثالث: تأثير تطبيقات إيزوتسو في الدراسات القرآنية، وخاتمة ونتائج البحث.

## المبحث الأول: إيزوتسو وعلم دلالات اللغة:

اشتهر العالم الياباني إيزوتسو توشيهيكو<sup>(١)</sup> بدراساته الدلالية للقرآن الكريم، والبحث في المفاهيم الفلسفية والكلامية المفتاحية لقضايا في علم الكلام والفكر الإسلامي، وحظي بتقدير الباحثين المسلمين وغير المسلمين من المهتمين بالدراسات القرآنية، وبتقدير خاص من الباحثين اليابانيين الذين يعدون دراساته عن الإسلام ركيزة صلبة لولادة تيار عريض من الباحثين المهتمين بالدراسات العربية والإسلامية في اليابان في النصف الثاني من القرن العشرين، وقد تتلمذ عليه جيل كامل من الذين تخصصوا في حقول معينة في تراث وآداب وتاريخ الشعوب العربية والإسلامية<sup>(٢)</sup>. وكان إيزوتسو يطمح أن تكون بعض دراساته إسهامًا حقيقيًا في دراسة البنية الأساسية للإسلام نفسه من حيث كونه واحداً من أكثر الثقافات الدينية أصالة وأهمية في العالم<sup>(٣)</sup>. وألف عددًا من الكتب عن الإسلام والأديان الأخرى، وعن اللغة والتصوف في كتابه: دراسة مقارنة للمفاهيم الفلسفية المفتاحية في الصوفية والطاوية، ولأهمية كتابه: الله والإنسان في القرآن. صدر المفكر الإسلامي المعروف فضل الرحمن الطبعة الثانية لهذا الكتاب بمراجعة مهمة كانت قد نشرت في مجلة *Islamic Studies*، إسلام آباد<sup>(٤)</sup>، وكان الأستاذ إيزوتسو موهوبًا جدًا في تعلم اللغات الأجنبية وعلى معرفة دقيقة بالعربية، والإنكليزية والفرنسية والألمانية، توفي في ١ يوليو/ تموز ١٩٩٣ م، ونقل تلامذته إسلامه وأنه سمي نفسه "مختار"<sup>(٥)</sup>.

- ١- ولد إيزوتسو في طوكيو سنة ١٩١٤ م، تخرج من جامعة كيو في طوكيو ثم دّرس فيها ١٩٥٤-١٩٦٦ م، ودّرس في جامعة مكجيل في كندا. إيزوتسو توشيهيكو: مفهوم الإيمان في علم الكلام الإسلامي، تحليل دلالي للإيمان والإسلام، ترجمة: عيسى علي العاكوب، دار الملتقى، حلب، ط١، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠ م، (مقدمة المترجم)، ص ٨. وقد ترجم البروفيسور العاكوب عدة مؤلفات لإيزوتسو من اللغة الإنجليزية: المفاهيم الأخلاقية الدينية في القرآن، الله والإنسان في القرآن، وقدمها للعالم العربي والإسلامي بلغة أدبية رشيقة، وقد كرمه المؤتمر الدولي الذي عقد في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، ٥-٧ يوليو ٢٠٠٧ م، فكان متحدثًا رئيسًا في المؤتمر.
- ٢- ضاهر مسعود، "الياباني إيزوتسو والرؤية القرآنية للعالم"، جريدة المستقبل اللبنانية، الأحد، ١٠ حزيران/ يونيو ٢٠٠٧ م، العدد رقم ٢٦٣٩، نوافذ، ص ١٥.
- ٣- إيزوتسو توشيهيكو، مفهوم الإيمان في علم الكلام الإسلامي، تحليل دلالي للإيمان والإسلام، ص ١١.
- ٤- ضاهر مسعود، "الياباني إيزوتسو والرؤية القرآنية للعالم"، ص ١٥.
- ٥- عبد الرحمن حللي: استخدام علم الدلالة في فهم القرآن، قراءة في تجربة الياباني توشيهيكو، بحث مقدم للمؤتمر الدولي حول: التعامل مع النصوص الشرعية، القرآن والحديث، عند المعاصرين، الذي نظمته كلية الشريعة بالجامعة الأردنية، ٤-٦ نوفمبر، ٢٠٠٨ م، جمع وترتيب كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، ص ٦.

ولموضوعيته وحياديته لم يصنف إيزوتسو مع المستشرقين، فقد كان يدعو إلى قراءة علمية في النص القرآني بغية فهمه فهماً صحيحاً، وجهوده ودراساته خير دليل على ذلك، إذ أثبت من خلال تلك الدراسات سعة اطلاعه ومقدرته على التدقيق وتقليب وجهات النظر، وبالتالي قدرة على اختيار الأصوب، وتكوين الآراء على أرضية صلبة وراسخة<sup>(٦)</sup>. وكان لتوشيهيكو إيزوتسو رأي خاص في علم الدلالة، هذا العلم الجديد الذي نضج قبل ما يربو على ثمانين عاماً. وكان في الأصل نزعة فلسفية تنصب المعالجات اللغوية كلها في خانة نظرية جديدة حول الكون والحياة وطبيعة العلاقة بين الإنسان والكون. ووفق تصور الأستاذ إيزوتسو هو علم معقد لدرجة كبيرة، لأنه نمط فلسفي مبني على تصور جديد للكون والوجود، كما أنه علم مفتقر إلى التناغم والانسجام!<sup>(٧)</sup>.

وعلم الدلالة علم قديم كما يرى البعض، لوجود محاولات عند كل الأمم لتحديد معاني الألفاظ المفردة، ومآلات هذه المعاني في التراكيب والجمل. فهو قديم باعتبار البحث في المعنى من حيث الوضوح والصحة، والاحتمال والفساد، وما تتعرض له دلالة الألفاظ من تحوّل في المعنى وعلل هذا التحوّل. ثم هو علم مستحدث لما طرأ عليه من تطورات أدخلها عليه علم اللسانيات الحديث، خاصة بيان صلته بالعلوم الأخرى حتى صار علماً قائماً بذاته له مناهجه بعد أن كان جزءاً من علوم أخرى<sup>(٨)</sup>.

وقد ظهرت أوليات هذا العلم منذ أواسط القرن التاسع عشر وكان من أهم المسهمين في وضع أسسها ماكس موللر، والخبير اللغوي الفرنسي ميشيل بريل الذي كتب بحثاً بعنوان: مقالة في السيميانتيك (semantics)، والعالم السويدي أدولف نورين في كتابه: لغتنا، ثم تتابعت الدراسات الدلالية بعد ذلك، فخصص كريستوفر نيروب مجلداً ضخماً من كتابه: دراسة تاريخية لنحو اللغة الفرنسية للتطور السيميانتكي، ونشر غوستاف شتيرن دراسة عن المعنى وتطوره، وتعد فترة الثلاثينات حسب رأي الأستاذ أولمان أهم فترة في تاريخ السيميانتيك<sup>(٩)</sup>.

وهذا يقودنا إلى ضرورة تعريف علم الدلالة، فهو: ذلك الفرع من العلم الذي يتناول نظرية

- 
- ٦- من مقدمة العاكوب على ترجمته لكتاب إيزوتسو توشيهيكو، المفهومات الأخلاقية الدينية في القرآن، ترجمة: عيسى علي العاكوب، دار الملتقى، حلب، ط١، ٢٠٠٨م، ص ٣١.
  - ٧- إيزوتسو توشيهيكو، الله والإنسان في القرآن، دراسة دلالية لنظرة القرآن إلى العالم، ص ٢٩.
  - ٨- عليان بن محمد الحازمي، "علم الدلالة عند العرب"، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج١٥، العدد ٢٧، جمادى الثانية، ١٤٢٤هـ، ص ٧٠٧.
  - ٩- أحمد مختار عمر، علم الدلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط ٥، ١٩٩٨م، ص ٢٢-٢٣.

المعنى، أو العلم الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز حتى يكون قادرًا على حمل المعنى، وهذه العلامات أو الرموز قد تكون علامات على الطريق، وقد تكون إشارة باليد أو إبهاء بالرأس، كما قد تكون كلمات وجملاً. ولا يمكن فصل علم الدلالة عن غيره من فروع اللغة، فكما تستعين علوم اللغة الأخرى بالدلالة للقيام بتحليلاتها، يحتاج علم الدلالة لأداء وظيفته إلى الاستعانة بهذه العلوم، مثل ملاحظة الجانب الصوتي الذي قد يؤثر على المعنى، ودراسة التركيب الصرفي للكلمة وبيان المعنى الذي تؤديه صيغتها، ومراعاة الجانب النحوي، وبيان المعاني المفردة للكلمات، ودراسة التعبيرات التي لا يكشف معناها بمجرد تفسير كل كلمة من كلماتها، والتي لا يمكن ترجمتها حرفيًا من لغة إلى لغة أخرى<sup>(١٠)</sup>.

ومن ناحية أخرى اتجه علم الدلالة إلى العوامل الخارجية ذات الأثر في الألفاظ من إنسانية واجتماعية، بل ونفسية وعاطفية، وما لهذه العوامل من أثر في انكماش بعض الألفاظ في دلالتها أو انحدار في سموها. وبالتالي فعلم الدلالة علم حديث، إن لم يصل إلى نظرية نهائية متسقة في دراسة المعنى، فإنه رغم ذلك، يشكل إضافة مهمة في دراسة المعنى<sup>(١١)</sup>.

اللغة ليست مجرد وسيلة للتفاهم وتبادل الأفكار أو وعاء للعلم لا يقبل التغيير والتبدل ويحافظ على هيكله ومضمونه على مر الأزمان والدهور، بل اللغة ظاهرة اجتماعية تتطور بتطوره وترتقي برفقه كما أنها تنحط بانحطاط المجتمع لأنها أداة تواصل اجتماعية تحيى بحياة المجتمع وتموت بموته<sup>(١٢)</sup>، وأهمية استحضار هذه النقطة بالذات تكمن في النظرة الحدائثية التي تقدمها النظريات الجديدة في علم الدلالات اللغوية، إذ تميل هذه الدراسات إلى التركيز على عنصر السياق للوصول إلى المعنى الحقيقي وإهمال الجذور اللغوية للمفردة، أي التركيز على الجملة لا على المفردة إلا في سياقاتها. وقد أكد إيزوتسو نفسه هذا الأمر في غير موضع، باعتبار أن البحث في جذور الكلمة والمعنى الوضعي وما يتعلق بذلك من مباحث في تاريخ اللغة والتقسيمات اللغوية أمر لا أهمية له<sup>(١٣)</sup>. وربما يكون متأثرًا في هذه النظرة بعالم الدلالة بلومفيلد

١٠- المرجع السابق، ص ١١-١٤، باختصار.

١١- عبد الرحمن حلي، استخدام علم الدلالة في فهم القرآن، قراءة في تجربة الباباني توشيهيكو، ص ٥.

١٢- رمضان عبد التواب، التطور اللغوي، مظاهره وعلله وقوانينه، دار الخانجي، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧م، ص ٥.

١٣- إيزوتسو توشيهيكو، الله والإنسان في القرآن: دراسة دلالية لنظرة القرآن إلى العالم، ترجمة: عيسى علي العاكوب،

دار الملتقى، حلب، ط ١، ٢٠٠٧م، ص ٤٦.

الذي قال: إن دراسة المعنى المعجمي، وبالتالي السيميانتيك تعد خارج المجال الواقعي لعلم اللغة<sup>(١٤)</sup>. ومن المعلوم أن أهم الوحدات الدلالية في نظر علماء اللغة العربية هي المفردة سواء أكانت فعلاً أو اسماً أو حرفاً لأنها أساس الكلام، مع التوكيد على أن هذه الوحدة لا يتحدد معناها حتى توضع في تركيب إضافي أو وصفي أو في جملة يمثل الإسناد فيها عنصراً أساسياً<sup>(١٥)</sup>.

وعنصر السياق مرتبط ارتباطاً وثيقاً بواقع النص والظروف التي أحاطت بنزوله والعمل به، وقاد هذا الارتباط كثيراً من الحدائين إلى تقديم الواقع على النص، وربط النص بظروف تاريخية غارقة في القدم، والسعي إلى تقديم قراءة جديدة للنص تعتمد على فهم المتلقي لا على طبيعة النص الذي يستمد قداسته من موحيه. وبهذه الصورة تتعدد قراءات المتلقين حسب تنوع أفهامهم، وينفتح النص أمام أفق ممتد من المعاني والدلالات اللامتناهية، ويموت المعنى الأولي المستفاد من النص والذي عاشه المتلقي الأول أو المتلقون الأوائل وتتخلق مجموعة من المعاني الجديدة التي قد لا تمت بصله إلى المعنى الأصلي<sup>(١٦)</sup>.

وقد دخل الحدائون العرب في معمعة هذه المعاني اللامتناهية والقراءات الممتدة في الأفق، ووصلوا إلى حدّ تهميش المتلقين الأوائل تماماً بل والتناول على موحى النص نفسه، وعزل النص عن موحيه والموحى إليه والمتلقين والعاملين به في القرون الأولى، وكأنه نص عائم يسبح في الأفلاك لا تحيط به حدود ولا تحده معان متخطين بذلك أصحاب المعاني الباطنية أنفسهم. وقد عبّر حسن حنفي عن هذه التطلعات الجديدة المتمركزة حول دلالات النص وسياقاته اللغوية المفصولة عن سياقاته التاريخية، فقال: "وبالتالي يمكن نقل عصرنا من مرحلة التمرکز حول الله، وهي المرحلة القديمة، إلى مرحلة التمرکز حول الإنسان، وهي المرحلة الحالية"<sup>(١٧)</sup>.

أما علماء اللغة والأصول والمتكلمون قديماً فقد أجمعوا جميعاً على أن فهم النص لا يُكتفى فيه بالنظر في مفرداته وفهم ألفاظه، بل لا بد من الاستعانة بعلم أوسع من هذا العلم اللغوي وهو علم مراد الشارح من الألفاظ والمفردات. وهذا العلم يتخطى المسافات الشاسعة التي وضعها أهل الدلالات

١٤- أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص ٢٤.

١٥- عليان بن محمد الحازمي، "علم الدلالة عند العرب"، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج ١٥، العدد ٢٧، جمادى الثانية، ١٤٢٤هـ، ص ٧٠٨.

١٦- محمد سالم أبو عاصي، مقالان في التأويل، دار البصائر، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ٥٤.

١٧- حسن حنفي، التراث والتجديد: موقفنا من التراث القديم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط ١، ١٩٩٢م، ص ١٢٢.

الجديدة حول قوة السياق وأثره في فهم النص، فاللغة طيعة للمعاني التي يريد الشارع إثباتها، واستخراج المعاني مرهون بمدى إدراك العالم لمراد الشارع. وقد عبّر العالم الكبير ابن قيم الجوزية عن هذا بقوله: "فهم مراد المتكلم من كلامه، وهذا قدر زائد على مجرد فهم اللفظ في اللغة، وبحسب تفاوت مراتب الناس في هذا، تتفاوت مراتبهم في الفقه والعلم" (١٨).

وقد أشار الخبير اللغوي أولمان إلى أن تغير العلاقة بين اللفظ والمدلول يظهر في صورتين: إحداهما أن يضاف مدلول جديد إلى كلمة قديمة، والثانية: أن تضاف كلمة جديدة إلى مدلول قديم. والصورة الأولى من صور التغير الدلالي قد استحوذت على اهتمام الدارسين حتى كادت تنسيهم الصورة الثانية، على اعتبار أن اللفظ ثابت ومعناه هو المتبدل، لذلك لم تلق الصورة الثانية من صور التغير الدلالي - وهي بقاء المعنى ثابتاً وتغير اللفظ الدال عليه - قدرًا كافيًا من الاهتمام. ويبدو أن الأسباب الخاصة بتغير معاني الألفاظ هي نفسها أسباب تغير الألفاظ ذاتها أيضًا (١٩).

أما المفهومات - أو المفاهيم وهو الجمع الأكثر شيوعًا والأقل نصيبًا في الأحقية اللغوية - فهي بالمعنى المنطقي مجموعة من الصفات والخصائص التي تحدد الموضوعات التي ينطبق عليها اللفظ تحديداً يكفي لتمييزها عن الموضوعات الأخرى. وقد تعني المعاني العقلية الكلية أو الأفكار العامة المجردة كالعدالة والحرية والمساواة والحق والخير والجمال. ويتم التعبير عن هذه المفاهيم برمز لغوي واحد يسمى لفظًا أو مصطلحًا. وتظهر المشاكل عندما يوضع لفظ واحد بإزاء معان كثيرة مع اختلاف القرائن (٢٠).

وفي إطار عملية بناء المفاهيم لا بد أن نستحضر آراء علماء العربية المتقدمين، فشيخ البلاغيين الجرجاني يرى أن الكلمة المفردة لا وزن لها إلا في التركيب، قال في الأسرار (٢١): "ومن البين الجلي أن التباين في هذه الفضيلة - أي فضيلة تفاضل الأقوال - والتباعد عنها إلى ما ينافيها من الرذيلة ليس بمجرد

١٨- ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ط ١، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ج ١، ص ٢٥٩.

١٩- حسين حامد الصالح، "التطور الدلالي في العربية في ضوء علم اللغة الحديث"، مجلة الدراسات الاجتماعية، العدد الخامس عشر، يناير - يونيو، ٢٠٠٣م، ص ٧٣.

٢٠- صلاح إسماعيل، "توضيح المفاهيم ضرورة معرفية"، ضمن كتاب: بناء المفاهيم: دراسة معرفية ونماذج تطبيقية، تأليف مجموعة من المؤلفين، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ص ٣١-٣٢.

٢١- أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تحقيق: محمد النجار، مكتبة محمد علي صبيح، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٢.

اللفظ. كيف والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضرباً خاصاً من التأليف ويعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب. فلو أنك عمدت إلى بيت شعر أو فصل نثر فعددت كلماته عدداً كيف جاء وانفق وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بنى وفيه أفرغ المعنى وأجرى وغيرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد كما أفاد وينسقه المخصوص أبان المراد، أخرجته من كمال البيان إلى محال الهذيان". وقال في الدلائل ما يؤكد هذا الكلام ويدعو في الوقت نفسه إلى إنعام النظر في المفردة: "ينبغي أن يُنظرَ إلى الكلمة قبل دخولها في التأليف وقبل أن تصيرَ إلى الصورة التي بها يكون الكلم إخباراً وأمرًا ونهيًا واستخبارًا وتعجبًا وتؤدي في الجملة معنىً من المعاني التي لا سبيلَ إلى إفادتها إلا بضم كلمةٍ إلى كلمةٍ وبناءٍ لفظيةٍ على لفظيةٍ. هل يتصورُ أن يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكونَ هذه أدلَّ على معناها الذي وُضعت من صاحبها على ما هيَ موسومةٌ به" (٢٢).

#### المبحث الثاني: القرآن الكريم والمفاهيم المفتاحية لإيزوتسو:

يعد إيزوتسو واحداً من الرواد الذين تميزت أعمالهم بكثير من الدقة والموضوعية، وقد ترك كتابه الله والإنسان في القرآن صدى واسعاً في الأوساط العلمية العربية والإسلامية، وأثنى على هذا الكتاب الأستاذ فضل الرحمن الذي كان على صلة شخصية بصاحب الكتاب، حيث قال: "إن هذا الكتاب لا يمثل إضافة سارة إلى الأدبيات الموجودة عن الإسلام فقط، بل يقدم أسلوباً جديداً لفهم الإسلام، خاصة من قبل غير المسلمين، وهو أسلوب مبني على تحليل لغوي أساساً" (٢٣).

وربما فاق استشار لاحق الحجم الطبيعي للمنهج الذي اتبعه إيزوتسو نفسه، إذ رأى بعض الباحثين، من قرائه المعجبين به، زوايا استحققت إعجابهم في تصوراته فاعتمدها مفصولة عن الرؤية العامة التي حاول إيزوتسو الالتزام بها من تقصص للمحاجات الكلامية والبيانات البلاغية وآراء المفسرين وغير ذلك مما احتاجه لبيان قضية كبيرة في الفكر الإسلامي وهي قضية الإيمان على سبيل المثال. فالقارئ في هذا الكتاب يجد إيزوتسو حريصاً على قراءة معتقدات الفرق المختلفة من أشاعرة وماتريدية ومعتزلة وشيعة وخوارج من أجل التوصل إلى فهم صحيح للأبعاد السياسية لقضية الإيمان ناهيك عن الجذور الفلسفية.

٢٢- أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق: محمد التونجي، دار الكتاب

العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٥م، ص ٥٢.

٢٣- مسعود ضاهر، "الياباني إيزوتسو والرؤية القرآنية للعالم"، ص ١٥.

فمفهوم الله مثلاً في كتاب إيزوتسو الله والإنسان في القرآن مفهوم كبير تدور حوله مجموعة من المفاهيم الأخرى وتتأثر به وبسيطرته. وكان لا بد من إعادة قراءة هذا المفهوم والمفاهيم المساعدة له أو الدائرة في فلكه. لأن: "بنية أي مفهوم تتألف من مجموعة من العناصر المكونة له. وهذه العناصر لا تأتي بدرجة واحدة من حيث البناء والأهمية، بل هناك عناصر أساسية وعناصر أخرى مكملتها وقد تشتق منها أحياناً. والعناصر الأساسية تتمتع بأسبقية منطقية في بنية المفهوم، إذ أنها لا تشتق من غيرها وإنما يمكن غيرها أن يشتق منها. وتشبه هذه العناصر الأساسية من هذه الزاوية المصادر أو البديهيات في الأنساق الرياضية والمنطقية. وتتمتع هذه العناصر بدرجة أكبر من التجريد إذا ما قورنت بغيرها من عناصر المفهوم" (٢٤).

وثمة قواعد وضعت لتحكم التعامل الصحيح والدقيق مع المفاهيم مثل: معرفة المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للألفاظ التي تعبر عن المفاهيم؛ ومعرفة السيرة الدلالية للمفهوم؛ والتمييز بين الدلالات الأصلية التي تجلب عند وضعه أول مرة؛ والدلالات التاريخية التي اكتسبها عبر تطوره؛ وتحليل البنية الدلالية للمفاهيم؛ والتمييز بين العناصر الأساسية والعناصر الفرعية في هذه البنية؛ والاعتراف بالخصوصية الحضارية والسمات اللغوية والمنطقية للغة التي تصاغ منها المفاهيم (٢٥).

وتكمن قوة مؤلفات إيزوتسو في بنائه للمفاهيم القرآنية بعيداً قدر المستطاع عن سيطرة المناهج الغربية ونظرياتها الوضعية. فالمفهوم عبارة عن كلمة و "الغرب يحاول نشر كلماته ومفاهيمه... إن الوعي بأهمية الكلمة ومسؤوليتها وفق البيان القرآني إنما يشكل الأساس في تحرير العقول والنفوس من الأفكار والنظريات والمعايير، والتخلي عما لا يفيد من مختلف مفردات أنماط الحياة الغربية؛ الأمر الذي يتطلب

---

٢٤- صلاح إسماعيل، "توضيح المفاهيم ضرورة معرفية"، ص ٤٨. وفي مقاله هذه انتقد صلاح إسماعيل الإمام الغزالي عندما عدّ اللفظ والعلم والمعلوم ثلاثة أمور متباينة لكنها متطابقة متوازية، وضرب مثلاً على ذلك "الساء"، فلها وجود في عينها ونفسها ثم لها وجود في أذهاننا ونفوسنا لأن صورة الساء حاضرة في أبصارنا ثم في خيالنا... فالقول دليل على ما في الذهن وما في الذهن صورة لما في الوجود مطابقة له، فانتقده بأن هذه الفكرة تنسحب على بعض المفاهيم دون بعضها الآخر، فهناك مفاهيم كثيرة لها وجود في الأذهان ووجود في اللسان دون أن يكون لها وجود في الأعيان مثل الشجاعة والمساواة والخوف من الله وغيرها. نقول وهذا الانتقاد ضعيف وفي غير مورد لأن الإمام الغزالي كان يتحدث عن الأشياء بمعنى الأعراض لا عن التصورات، والتفريق بينهما أبين من أن يخفى على الإمام الغزالي وهو من كبار المنظرين لهذه المسائل! انظر: ص ٤٩.

٢٥- صلاح إسماعيل، "توضيح المفاهيم ضرورة معرفية"، ص ٥٠.



إجراء تغيير جذري في بناء المفاهيم والتأكيد على صفتها وطبيعتها ومصادرها وأدواتها الإسلامية" (٢٦).  
وكتاب إيزوتسو مفهوم الإيمان في علم الكلام الإسلامي كتاب جدير بالقراءة والتدبر، لأن قضية الإيمان شغلت عقول المتكلمين والفقهاء والمفسرين والأصوليين، واختلفت فيها الأفهام، وتباينت حولها الأدلة والبراهين العقلية والنقلية. ولنأخذ على سبيل المثال كيفية مناقشة إيزوتسو لقضية: هل الله تعالى خلق الكفر؟ وما صلة ذلك بعدله تعالى؟ ويبدأ بعرض قول المعتزلة الذين يوافقون جميعاً - عدا المعتزلي صالح قبة - على أن الله لا يخلق الكفر ولا المعاصي، إذ لو كان خالقاً للكفر فإن المسؤولية عن وجود الشرور في الدنيا ستكون على الله لا على الإنسان. ولن يكون لله سبحانه الحق في عقاب الكفار على كفرهم. وهكذا يحل المعتزلة المسألة ببساطة بنفي الخلق الإلهي للكفر!، وموقف المعتزلة القاضي بأن الكفر مخلوق - كما يرى إيزوتسو - صعب للغاية، لأنه يثير سؤالاً حاداً: هل يريد الله الكفر لأنه يستحيل أن يوجد إنسان شيئاً من دون إرادة إيجاده؟ فإن قالوا نعم، فسيثورون في مشكلة الاضطرار إلى قول: إن الله أحب الكفر واستحسنه! (٢٧).

أما ابن حزم فيرى أن الله أراد للكافر كفره ولكنه لم يرض عن ذلك بل سخط على فاعله لأن من قدر على المنع من شيء فلم يفعل ولا منع منه فقد أراد وجود كونه، ولو لم يرد كونه لغيره ولمنع منه ولما تركه يفعل. وحجة ابن حزم في ذلك أن الله قادر على منع الكافر من الكفر، ومن قال أنه لم يكن قادراً على المنع فقد أثبت له العجز وهذا كفر مجرد وإبطال لألوهيته، ومن أقر قدرته على المنع فقد أقر أنه يريد لبقائهم على الكفر. ويلاحظ إيزوتسو أن ابن حزم جعل الكلمة المفتاحية "المشيئة" والأخرى "الإرادة" وحدة واحدة، وفصل في هذه الوحدة بين معنيين، وهذه هي النقطة التي يختلف عندها اختلافاً أساساً عن الماتريدية (٢٨).

فالماتريدية يرون أن الله يريد للكافرين الكفر لأنهم يختارون ذلك لكنه لا يرضاه، ويختلفون عن ابن حزم في استعمال كلمتي الإرادة والمشيئة اللتين هما تعبيران مفتاحيان مهمان لمناقشة هذه المسألة، فعند ابن حزم الإرادة والمشيئة مترادفتان، ثم في داخل هذه الوحدة المفردة يقدم تمييز بين معنى استحسان شيء

٢٦- سيف الدين عبد الفتاح إسماعيل، "بناء المفاهيم الإسلامية ضرورة منهجية"، ضمن كتاب: بناء المفاهيم، دراسة معرفية ونماذج تطبيقية، تأليف مجموعة من المؤلفين، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط ١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص ٨٠-٨١.

٢٧- إيزوتسو توشيهيكو، مفهوم الإيمان في علم الكلام الإسلامي، تحليل دلالي للإيمان والإسلام، ص ٢٩٦.

٢٨- المصدر السابق، ص ٣٠١-٣٠٢.

ومعنى إرادة وجود هذا الشيء فقط - بمعنى أن الله أراد وجود الكفر ولكن لم يستحسنه ولم يرض عنه - أما الماتريدية فالمشيئة والإرادة عندهم مفهومان مختلفان على نحو تام يمكن معه تمييز أحدهما من الآخر: فالله تعالى خلق الكفر وشاءه لكنه لم يأمر به، وفي الأحوال كلها، أمر الكافر بأن يؤمن، وإن كان لم يشأه له، وهكذا يظهر التضاد بين المشيئة والأمر في شأن الإيمان والكفر بنية معقدة في الماتريدية، فلإنسان الذي يحدث له أن يكون مؤمناً بالقوة يشاء الله له الإيمان برغم أنه لا يأمر به، والإنسان بفضل ذلك يصبح مؤمناً بالفعل من دون أن يضطر إليه. وعلى النحو نفسه في حالة الإنسان الذي يكون كافرًا بالقوة يشاء الله له الكفر لكنه لا يأمره به، والله تعالى يشاء الكفر لمثل هذا الإنسان بسبب علمه القبلي الأزلي أن هذا الإنسان سينتهي أخيرًا بأن يختار اختيارًا خاطئًا ويأخذ الكفر لنفسه، وهذا البيان الختامي من الماتريدية يرمي من الوجهة النظرية إلى صيانة عدل الله (٢٩).

أما الأشعري الذي عالج مسألة خلق الإيمان في صورة حدث كوني يسبق على نحو غير محدود ولادة الإيمان الذي يكون مسألة وجودية شخصية لدى كل فرد من أفراد البشر، فيتعامل مع خلق الكفر على أنه مسألة فردية شخصية صرف، ويتأمل في المسألة في سياق جبري قائم على القضاء والقدر، على نحو لا لبس فيه، فلا يؤكد مسألة خلق الكفر بقدر ما يؤكد قضاء الله وتقديره للكفر. فالمعاصي من قضاء الله وقدره، والكفر الذي هو مقضي باطل أساسًا لكن قضاء الكفر حق (٣٠).

ومن النقاط الملفتة للنظر في معالجة إيزوتسو لهذه القضية الكلامية الشائكة أنه أثناء مناقشته لأدلة المعتزلة واعتراضات الأشاعرة عليهم لا يعود إلى أمهات الكتب الاعتزالية في هذه المسألة ك: مدونة القاضي عبد الجبار، وأقوال الجبائين والنظام والزخشري وغيرهم من كبار رجالات المعتزلة وإنما يعود إلى نقيب الشيعة الشريف المرتضى في أماليه وكأنه المرجع الأخير في هذه المسألة لفرقة المعتزلة (٣١)، وبالمقابل يستفيض في عرض وتفصيل وشرح آراء الماتريدية، وإن كان لعمله هذا ما يبرره وتدعو الحاجة الكلامية إليه.

وبالمقابل يتابع إيزوتسو باهتمام المفاهيم المفتاحية التي تستخدمها الفرق المختلفة: المشيئة والأمر والاستحسان والإرادة والقضاء والطاعة، وأوجه التوافق أو التضارب في دمج هذه المفاهيم أو إضافة مفاهيم جديدة إليها، ولكن ماذا عن رأيه الشخصي في هذه المسألة؟ وإلى أي حد أدت عملية البحث في

٢٩- إيزوتسو توشيهيكو: مفهوم الإيمان في علم الكلام الإسلامي، تحليل دلالي للإيمان والإسلام، ص ٣٠٤-٣٠٥، وص ٣٠٧.

٣٠- المصدر السابق، ص ٣٠٢-٣٠٣.

٣١- في ثنايا الكتاب عاد إيزوتسو إلى كتب معتبرة في الفلسفة الاعتزالية إلا أنه خلال عرضه لهذه القضية تركها جانبًا!

المفاهيم المفتاحية إلى إضافة نوعية في هذه المسألة الفلسفية؟ وهل أضاف إيزوتسو نفسه مفهوماً مفتاحياً جديداً سوى ما قدمته الفرق الكلامية وكان لها دور في إثراء المسألة وحسم بعض الأقوال فيها؟ يعقب إيزوتسو على مناقشة الماتريديّة بأنها مناقشة ذات طبيعة مدرسية تماماً، وهي من الوجهة الشكلية مبنية على معالجة معقدة وبارعة لعدد من المفهومات المفتاحية... لكن المسألة الكلامية الحقيقية التي يريدون تقديمها بهذه المعالجة المدرسية للمفهومات مسألة بسيطة تماماً، وتمثل في أن الله خلق الكفر بمشيئته لأنه علم منذ البدء أن بعض الناس سيختارون بإرادتهم طريق الكفر، أي أنه أحب خلق الكفر، لكنه ما كان راضياً بأن يصبح الناس فعلياً كفاراً باختيارهم الكفر!<sup>(٣٢)</sup>.

وهذه النتيجة التي قدمها إيزوتسو حول فهم الماتريديّة هي نفسها التي اعترض بها على فرضيات المعتزلة في نفي خلق الله للكفر وعدّها ورطة كلامية تؤدي إلى القول بأن الله أحب الكفر واستحسنه؛ لكنه قرر أن المناقشة الماتريديّة مثيرة للانتباه من وجهة أنها إيضاح ملموس للجهود العقلي الهائل الذي بذله الماتريديّة لإبقاء عدل الله داخل حدود أهل السنة، أي من الاستسلام للاعتزال. فمسألة خلق الإيمان والكفر أثارها المعتزلة أولاً من وجهة نظر أنها مسألة خطيرة جداً من مسائل الدفاع عن العدل الإلهي<sup>(٣٣)</sup>.

ويمكن أن نستخلص نتيجة واضحة في هذا المساق، وهي أن ما بذله العالم الياباني إيزوتسو في هذه المسألة (خلق الكفر) من جهود لم تتعد حدود العرض الممتاز لأدلة الفرق المتحاربة، وتحليل دقيق ومميز للاستدلالات التي تمت أثناء تفسير بعض آيات القرآن الكريم، لكنه في عرضه هذا لم يضيف جديداً فيما يتعلق بالمفاهيم المفتاحية لهذه القضية، وإنما استخلص هذه المفاهيم ببراعة وجودة، ولم يختتم القضية برأي مستقل كأي متكلم أو فيلسوف يعرض لقضايا عقائدية، ولم يرجح قولاً على قول، ولم تسعفه ثقافته الواسعة بالديانات أن يعرض لأوجه التشابه والتضاد بين آراء المتكلمين المسلمين ونظرائهم من لاهوتيين اليهود والنصارى، لبيان أوجه القوة والضعف والقصور في تناول قضية فلسفية معقدة.

فمن حيث المنهج كان عمل إيزوتسو مقتصرًا على استلال المفاهيم المفتاحية التي استخدمتها فرق المعتزلة والأشاعرة والماتريديّة والظاهرية، وبيان طرقهم في الاستدلال بها. وهو جهد طيب إلا أنه لا يرقى إلى درجة الإضافات المنهجية الكبيرة للمتخصصين في علم المناهج. ومن حيث المضمون لم يضيف جديداً إلى الآراء والفرضيات التي قدمتها تلك الفرق. ومن يقرأ تحليل إجناز جولدتسيهر للقضايا الكلامية في كتابه:

٣٢- إيزوتسو توشيهيكو: مفهوم الإيمان في علم الكلام الإسلامي، تحليل دلالي للإيمان والإسلام، ص ٣١٠.

٣٣- المصدر السابق، الصفحة نفسها.

مدخل إلى العقيدة والشريعة في الإسلام يجد استقصاء وتحليلاً تاريخياً وفلسفياً دالاً على قراءة معمقة. ويبقى الفرق بين الرجلين أن إيزوتسو كان يهدف إلى إظهار الفكر الإسلامي كنسق فكري مستقل وفاعل ومؤثر في قضايا العالم الفكرية والعقدية، وهو هدف أسمى بكثير مما سعى إليه جولدتسيهر.

### المبحث الثالث: تأثير تطبيقات إيزوتسو في الدراسات القرآنية:

وحتى نقيّم أعمال المفكر الياباني إيزوتسو لا بد أن نستحضر بصورة جديّة أنه لم يكن مسلماً عندما أَلّف كتبه ونشرها على الملأ، فنستبعد تلقائياً كل وهم يمكن أن يرد على خاطر من اتباعه لمناهج المسلمين القديمة أو المعاصرة المتعلقة بالدراسات القرآنية، بل تأثر بشكل واضح بالمناهج الغربية ولم يخف ذلك على القراء وإن كان هدفه مختلفاً في مآلاته وصور عرضه عن المؤلفات الاستشراقية، إذ قرر ابتداء تقديم الإسلام بوصفه من أهم أديان العالم بغية فهمه فهماً أوضح بعزله عن عالم السياسة والصراعات اللاهوتية. ولن يقودنا هذا الاستحضار إلى نتيجة معاكسة بقبول تطبيقاته ونتائج دراساته كما هي بله اتخاذها نموذجاً يقتدى في مناهج الدراسات القرآنية الحديثة، والبناء على فرضيات تقدم بها واستخلاص نظريات وهمية.

وقديماً انبهر كثير من مفكري الإسلام بالكتابات الاستشراقية وساروا على نهجها، وقدموها لأبناء دينهم بوصفها حقائق أفرزتها آخر المناهج العقلانية التي توصل إليها الغرب المتحضر. فلا ينبغي لنا اليوم أن ننبهر بملفات هذا العالم الياباني أو غيره لأنه قرر أن يحتتم حياته ومسيرته العلمية باعتماد الإسلام - إن صحّ إسلام إيزوتسو - فهل قبلت مؤلفات علمائنا القدامى إلا بعد تمحيص عميق وتحقيق طويل وبعد أن أثبتت التجارب التاريخية صحة كثير من موضوعاتها، ومؤلفات إيزوتسو كغيرها لا بد أن تخضع لدراسات علمية معمقة من قبل أهل الاختصاص ليظهر نفعها من زبدها سواء أكان ذلك على مستوى المنهج أو المضمون.

ولن نؤاخذ إيزوتسو قطعاً على اتخاذ هذا المنهج الفريد في دراسة القرآن الكريم، فهو قبل كل شيء غير مسلم تعرف على الإسلام من المؤلفات الغربية، وساعدته مقدرته الفائقة في تعلم اللغات ومتابعة المناهج الدلالية الحديثة على أن يختط لنفسه طريقاً لفهم القرآن والإسلام وتقديمه للناس بصورة موضوعية، ووفق في ذلك أيما توفيق، وترك بصماته في قراءات الفكر الديني المعاصرة، وأثنى عليه المسلم وغير المسلم، وتحول اسمه في سماء عالم الأديان إلى نجمة ساطعة تبهر المعجبين، ولكن يسعنا أن نؤاخذ من استسلم لأفكاره دونما تبصر، ونسج على منواله، بل وبنى على تصوراتنا دونما مراجعة أساسية.

ونورد مثلاً على اعتماد مداخل إيزوتسو في بعض الدراسات القرآنية الحديثة، فكتاب الخطاب السياسي في القرآن، السلطة والجماعة ومنظومة القيم لعبد الرحمن الحاج هو في الأصل رسالة دكتوراه مقدمة إلى قسم الدراسات القرآنية والحديثية في الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، وقد وجد الباحث نفسه مقتنعاً بضرورة الكتابة في هذا الميدان مع أن مفكراً سورياً معروفاً ألف كتاباً في الموضوع ذاته وهو المفكر رضوان السيد، وكتابه بعنوان: الأمة والجماعة والسلطة، دراسات في الفكر السياسي العربي الإسلامي، وربما تولدت هذه الفناعة من التطورات الأخيرة في علم الدلالة ومواكبة الترجمة العربية لقسم كبير من مؤلفات هذا العلم، كما أن ترجمة كتب إيزوتسو فتحت شهية كثير من الباحثين لإعادة طرق بعض الموضوعات العقائدية والسياسية التي ألفت فيها كتب ظنّ كتابها حينها أنهم أوصلوا موضوع دراستهم إلى مرحلة النضوج والحرق!

وفي أول إشارة من الباحث إلى إيزوتسو بدا غير مقتنع بما قاله إيزوتسو حول معنى الأئمة في القرآن الكريم، إذ وسعه إلى درجة تبدو كما لو أنه يدخل في الأئمة الأمة المسلمة ذاتها، وإن خالف آراء المستشرقين حول معنى الأئمة، والتي حامت حول معنى: الوثنيين كما قال شبرنجر، أو من لم يكن لهم كتاب كما قال فنسك وهوروفيتز بناء على التشابه القليل (والطريف) بين كلمة أميين وكلمة غويم العبرية، أو أن الأئمة هم العرب على أساس أن الكلمة مشتقة من الأمة (٣٤).

وحتى تتوضح العلاقة بين مشروع الحاج السياسي وبين مؤلفات إيزوتسو، نلقي نظرة عامة على كتابه: مفهوم الإيمان في علم الكلام الإسلامي. فقد كان هذا الكتاب مثيراً إلى درجة كبيرة بحيث صار نموذجاً في التعامل مع المفاهيم القرآنية. وتضمن كتابه: الله والإنسان في القرآن تسعة فصول حملت الموضوعات التالية: علم الدلالة في القرآن، المصطلحات المفتاحية القرآنية في التاريخ، البنية الأساسية للرؤية القرآنية للعالم، مفهوم "الله" لدى الوثنيين واليهود والمسيحيين والحنفاء، العلاقة الوجودية بين الله والإنسان، العلاقة التواصلية بين الله والإنسان، "الجاهلية" والإسلام، العلاقة الأخلاقية بين الله والإسلام. وقد تضمنت مكتبة البحث مصادر عربية من الدرجة الأولى مما يدل على سعة إطلاع المؤلف بالدراسات العربية والإسلامية في تلك الفترة، بالإضافة إلى مصادر ومراجع باللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية واليابانية التي لم تتم الإشارة إليها لصعوبة كتابتها في الطبعة الإنكليزية التي

نقلت عنها الترجمة العربية، وواضح من خلال هذا فصول الكتاب مدى تركيزه على مفهوم لفظة الجلالة الله<sup>(٣٥)</sup>، وقد عالج الحاج قضايا قد طرقها إيزوتسو في كتابه هذا، مثل مفهوم الله والجاهلية، والعلاقة التواصلية بين الله والإنسان.

ثم اعتمد على تحليل إيزوتسو لبعض المفاهيم لاحقاً وبنى عليه. فحسب تحليل إيزوتسو، إن المفهوم المركزي في الخطاب القرآني هو التوحيد، والكلمة المفتاحية إلى هذا المفهوم الشامل هي مفردة "الله" وهي الكلمة التي نالت شرف التكرار والإعادة في آيات القرآن الكريم. ويرى إيزوتسو أن كل المفاهيم التي تشكل الخطاب الأساس والخطابات الفرعية تدور في فلك هذا المفهوم، كما أن المفاهيم المفتاحية الكثيرة في القرآن خاضعة لسيطرة هذا المفهوم وتأثيره المستمر. ويسعى الباحث فيما بعد إلى إيجاد العلاقة بين هذا المفهوم المفتاحي وبين الخطاب السياسي في القرآن، وتشكيل ما يسميه التوحيد السياسي<sup>(٣٦)</sup>.

وعلى الرغم من انتقاده لإيزوتسو في بعض المواضع، مثل اعتقاده أن ظاهرة التوحيد الحنيفية والتصور الجاهلي لمفهوم الله في الجزيرة العربية مرجعه تأثير الديانتين اليهودية والمسيحية، فهي حسب رأي الباحث تغفل علاقة المفهوم التوحيدي العربي مع الدعوة الإبراهيمية التي بقي تأثيرها عميقاً إلى فترة ليست بعيداً جداً من البعثة... على الرغم من ذلك فإنه يتابع سياسة إيزوتسو في تحليل قوة مفهوم الله، وأنه أحدث طفرة لا تكمن في إدراك وجود الإله نفسه، كما لا تكمن في اكتشاف مفاهيم الروح والأبدية ولا في تغيير الطقوس والمظاهر الاحتفالية للعبادة ولا حتى في معنى الإيمان ذاته بل تمكن في أنها ثورة في الوعي الديني ذاته! هو تحرير فكرة الألوهية من الملك والسلطة الملكية أو سلطة الدولة<sup>(٣٧)</sup>.

لقد انساق الباحث حقاً وراء بريق فتان للعبارات، وتأثير مخدر للمفاهيم المفتاحية أنساه التقارير العقائدية الأولى التي ليس فيها أي ذكر لهذا المفهوم المفتاحي الساحر (تعالى الله وجلت أسماؤه وصفاته)، فسورة العصر مثلاً، وهي أقصر سورة في القرآن الكريم وبها جرى التحدي الخالد ليس فيها اسم الله ولا أي اسم من أسماء وصفات الله تبارك وتعالى، ولم يرد اسم الله في المعوذتين وهما تيممة كل مسلم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من ترديدهما قبيل النوم وغير ذلك من المهمات، وسورة البلد، والليل، والطارق، وعبس، والرحمن وهي ليست سورة قصيرة، والفيل، والضحي، والماعون،

٣٥- مسعود ضاهر، "الباباني إيزوتسو والرؤية القرآنية للعالم"، ص ١٥.

٣٦- عبد الرحمن الحاج، الخطاب السياسي في القرآن، السلطة والجماعة ومنظومة القيم، ص ١٤٣-١٤٤.

٣٧- انظر: المرجع السابق، ص ١٤٢، ١٤٥.

وقريش، وسورة القدر بما فيها الليلة العجيبة التي ينتظرها كل مسلم بفارغ الصبر كل رمضان من كل عام، وغيرها من السور التي لها أهمية في الاعتقاد، ويعلم كل مسلم أن هذه السور كانت من أوائل ما نزل لتثبيت العقيدة وأركانها في قلوب وعقول الطائفة المسلمة التي لم تنتبه على الأغلب لغياب هذا الاسم الشريف والمفهوم المفتاحي القاهر.

كما أن كثيرًا من التقارير العقائدية الحاسمة جاءت في مقاطع قرآنية معروفة وعلى ألسن الخواص والعوام يرددونها في الصلوات والخطب والمحافل العلمية وليس فيها اسم الجلالة الله. فتحويل هذه القضية التي مبناها كتاب إيزوتسو الله والإنسان في القرآن يحجب رؤية القضايا في فلکها الكبير. وقضايا المناسبة والوحدة الموضوعية في السورة ليست مبنية على مفهوم واحد كما هو معلوم، بل متعلقة بموضوع تتحدث عنه الآيات الكريمة بغض النظر إن كان اسم الجلالة الله قد ذكر فيها أو لا، وجعل هذا التحويل نظرية وأساساً لفرضيات أخرى أكبر لا ينفع الدراسات القرآنية كثيرًا.

بل الأولى توجيه النظر إلى بعض الآيات التي تشكل مفتاحاً لفهم قضايا سياسية كبيرة يعيشها العالم الإسلامي، وهذه الآيات خلقت كذلك من اسم الجلالة الشريف "الله"، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْبَيْعَةِ مَنْ يَسُوءُهُمْ سَاءَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣٨)، إذ فيها إعلام بمستقبل اليهود إلى يوم القيامة فقد توعدهم المولى أنه سيسلط عليهم أمة من الأمم يعذبونهم ويسومونهم سوء العذاب كل فترة من الزمن، وسواء أكانت هذه الأمة مسلمة أم لا، فالأمر واقع لا محالة. وإذا سلطنا الضوء قليلاً على كلمة تأذن لوجدنا فيها مفاتيح تقودنا إلى جعل الآية شعاراً ودليلاً على التاريخ اليهودي الماضي والحاضر والمستقبل. فكلمة تأذن وردت في القرآن مرتين في الأعراف، والآية الأخرى في سورة إبراهيم، وهي كذلك تتحدث عن اليهود، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (٣٩)، وآية سورة إبراهيم وعيد من الله في حياة موسى عليه السلام كما يوضح السياق. وهو الوعيد نفسه الذي تكرر في سورة الأعراف وفي سياق مختلف يتحدث عن المسخ الذي حل بأهل السبت؛ إلا أن قوله تعالى: ﴿إِنِّي يَوْمَ الْبَيْعَةِ﴾ يجعل الوعيد فوق الإطار الزماني والمكاني. وكلمة تأذن في الموضوعين تعني إما أعلم أو أمر كما أفاد شيخ المفسرين الطبري.

٣٨- سورة الأعراف، الآية: ١٦٧.

٣٩- سورة إبراهيم، الآية: ٧.

وفي كلتا الحالين هو وعيد ثابت لا بد أن يتحقق كل فترة من الزمن طال أو قصرت (٤٠).

فالأية في المثال السابق تحولت إلى دليل تفتحت أمامه أبواب من الرؤى المستقبلية المتكررة إلى قيام الساعة. وثمة مقاطع قرآنية في غاية الشهرة والتداول نلحظها خالية كذلك من اسم الجلالة "الله"، وهي على الرغم من ذلك تشكل شعارًا يرفعه المسلم ليل نهار، ويستذكره الخطباء والوعاظ لأهمية الأحكام الواردة فيها، وعظمة وجلالة التعبيرات البلاغية، وهذا المقطع هو: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفَضَّلَهُ فِي عَمَلَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١١﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ تُرَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾، ويكمله من حيث المعاني مقطع آخر لم يتضمن اسم الجلالة الله، وهو قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِضْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دُرِّيَّتِي إِنَّي بُنْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٥١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾.

فالمقطعان اللذان يتألف كل واحد منهما من آيتين وحسب يشكل كل بمفرده موضوعًا أخلاقيًا واجتماعيًا وساحة للبيان وروائع البلاغة، ولا يضر أنها مسبوقان أو متلوان بآيات فيها لفظ الجلالة "الله". لأن الاستشهاد بهما دون السابق واللاحق يؤدي الغرض. فما قيمة التركيز على مفهوم مفتاحي اقترحه ايزوتسو مهما كانت عظمة هذا المفهوم وجلالته؟ أليست دلالة الرب كافية في هذه المواضع؟ ولن ينفع أولئك المتشبهين بالمفهوم المفتاحي التذرع بأن الله والرب واحد. فالبحث العلمي يأبى مثل هذا الالتفاف والتهرب، كما أن المفهوم المركزي في الخطاب القرآني والذي هو التوحيد وفق رأي ايزوتسو لا يبدو مقنعًا، لأن القرآن الكريم يتحدث عن العقيدة بشعبها الثلاث: الوحدانية والنبوات والمعاد، كما يتحدث عن الأحكام والتشريعات بصورة تتداخل فيها الموضوعات العقائدية مع التشريعية بانسجام وترابط.

ومن يمعن النظر في مواضيع السور القرآنية يجد أن مقولة اتحاد الموضوع في كل سورة من سور

٤٠- أبو جعفر محمد بن جرير الأمل الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة،

بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج١٣، ص ٢٠٤.

٤١- سورة لقمان، الآيتان: ١٤-١٥.

٤٢- سورة الأحقاف، الآيتان: ١٥-١٦.



القرآن مقولة لا تخلو من مبالغة وتعميم لا تسندها دراسات مستفيضة ووافية، فالتنوع في مواضيع السورة الواحدة ظاهرة لا تخفى والملاحظ تعدد المواضيع في السورة الواحدة، وهذه ظاهرة من ظواهر القرآن (٤٣)، خاصة في القرآن المدني حيث تتعاقب مواضيع البعث والحساب والعقيدة والتوحيد في صورة فريدة مع القوانين الناظمة للمجتمع من جوانبه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، يشعر معها الإنسان مدى عظمة الخالق ورهبة الحساب وضرورة مراجعة العقيدة. ولا ريب أن التوحيد أساس الدين، والعبادات دعائمه، فمجئها جنباً إلى جنب مع مشاهد القيامة مشعر بمدى خطورتها وشناعة جرم المتهاون بها، فكانت هذه الظاهرة علامة على ثراء السورة مهما قصرت وغناها الفكري، وإشارة إلى طريقة القرآن الكريم في التربية والتوجيه، بضبط مسارات التوجيه العقائدي والاجتماعي والسياسي في خطوط متوازية تشكل في مجموعها وحدة لا تنفصم عراها.

ويبدو أن الإمام محمد عبده قد تأثر بمقولة الشاطبي وحاول تطبيقها على السور، ومما توصل إليه في هذا الباب أن موضوع سورة البقرة هو إطار: دعوة الإسلام وأحكامه وقواعده (٤٤)، ولكن ألا تنطوي مقولته تلك على مواضيع متعددة من باب أن الإسلام ليس سوى أحكام وقواعد؟! وهي تشبه إلى حد بعيد ما قاله الشاطبي (٤٥)، وهل يُسلم له هذا؟ فسيد قطب يرى أن سورة البقرة عبارة عن محورين متداخلين هما: موقف بني إسرائيل من الدعوة الإسلامية في المدينة، وموقف الجماعة المسلمة وإعدادها لحمل الخلافة في الأرض. في حين يرى دروزة أن مواضيعها: مواقف الحجاج والتنديد، التشريع (الصيام، القتال، الحج، الأنكحة...)، موقف اليهود من الدعوة وربط ذلك بتاريخهم القديم، تعليقات إيمانية وأخلاقية واجتماعية (٤٦).

ومقاصدها عند دراز أربعة على الرغم من أن دراز يتحسس لمقولة الشاطبي السابقة: مقدمة في التعريف بشأن القرآن وبيان مدى وضوحه، ومقصد في دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام، ومقصد في دعوة أهل الكتاب خاصة، ومقصد في عرض شرائع الدين تفصيلاً، ومقصد في ذكر الوازع والنازع الديني

٤٣- حجازي، الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم، مطبعة المدني، القاهرة، ط ١، ١٩٧٠م، ص ٩٤.

٤٤- رشيد رضا، تفسير المنار، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٩٧٣م، ج ١، ص ١٠٥.

٤٥- موضوعها عند الشاطبي: الدعوة إلى عبادة الله. وهل القرآن كله إلا دعوة إلى عبادة الله!!!

٤٦- عبد الرحمن عبيد حسين، الترتيب التوقيفي وصلته بالوحدة الموضوعية وعلم المناسبة، وحدة النشر في جامعة

العلوم الإسلامية الماليزية، نيلاي، ماليزيا، ط ١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص ٢٢-٢٣.

الباعث على ملازمة تلك الشرائع، وخاتمة في التعريف بالذين استجابوا للدعوة<sup>(٤٧)</sup>. وقد يظهر لغيرهم غير هذا وذاك، فهل بعد هذا الاختلاف خلاف في تعدد مواضع سورة البقرة؟! ولو أراد مكابر أن يدعي أن موضوعها واحد لقال أن موضوعها الإسلام، وحينها لن يجد من ينازعه!

ولو أن باحثاً قرر التركيز على مفردة "الرب" في كثير من الآيات التي تتناول العقيدة وجعلها مفهوماً مفتاحياً لاستخرج هو الآخر حزمة من التصورات التي قد تحلب الألباب وتدهش القراء، أو ركز على مفردة "الرحمن" كما فعل المستشرق نولدكه وتابعه كل من بلاشير وجوميه، لاستخرج نظرية تضاهي في قوتها النظرية التي طرحها نولدكه في كتابه تاريخ القرآن حول اسم الرحمن، والذي زعم فيه أن هذا اللفظ ورد في المرحلة المكية الثانية وفي أجواء كنسية ساحرة، مقابل ورود اسم الرب في المرحلة المكية الأولى، واسم الجلالة الله في المرحلة المكية الثالثة والمرحلة المدنية، وقام بتوزيع السور إلى مجموعات تخدم هذه الرؤية الساعية إلى إثبات قوة تأثير الأديان المنتشرة في شبه الجزيرة العربية وجوارها في تطور النص القرآني.

ورأينا من خلال تحليل المثال السابق كيف انساق الباحث وراء جملة من التصورات التجريدية، بعيداً عن المنهجين الوظيفي والسلوكي في تناول قضايا في الفكر السياسي، فـ: "الفكر السياسي والتفكير السياسي هما اللذان يستخدمهما الإنسان لحل مشاكله وإزاحة العقبات التي تعترض تطور المجتمع وتعرقل ازدهاره، والفكر السياسي ليس هدية مجانية تهبط على بعض الأفراد أو الجماعات وإنما هو جهد متواصل ومعاونة تستند إلى دقة الملاحظة، بمعنى أن يكون المفكر السياسي يقظاً إزاء ما يحدث حوله وما يدور في العالم"<sup>(٤٨)</sup>.

#### خاتمة ونتائج البحث:

يعد إيزوتسو واحداً من الرواد الذين تميزت أعمالهم بكثير من الدقة والموضوعية، وقد ترك كتابه الله والإنسان في القرآن صدى واسعاً في الأوساط العلمية العربية والإسلامية، وكان يطمح إلى أن تكون بعض دراساته إسهاماً متواضعاً لكنه حقيقي في دراسة البنية الأساسية للإسلام نفسه من حيث هو واحدة من الثقافات الدينية الأكثر أصالة وأهمية في العالم، ولموضوعيته وحياديته لم يصنف إيزوتسو مع

٤٧- عبد الله دراز، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، تخرّيج وتعليق: عبد الحميد الدخايني، دار المرابطين، الإسكندرية، ط ١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص ١٧٥.

٤٨- شاكر اليساوي، في بعض المفاهيم والأفكار، دار الينابيع، دمشق، ط ١، ١٩٩٦م، ص ٢٣.

المستشرقين، فقد كان يدعو إلى قراءة عالمية في النص القرآني بغية فهمه فهماً صحيحاً، وقد كان لإيزوتسو رأي واضح وصريح في علم الدلالة، فهو علم معقد لدرجة كبيرة، لأنه نمط فلسفي مبني على تصور جديد للكون والوجود، كما أنه علم مفتقر إلى التناغم والانسجام! وعلى الرغم من ذلك أصبحت مؤلفاته مرجعاً مهماً في تطبيقات هذا العلم على القرآن الكريم من خلال مفاهيم اختارها بعناية كمفهوم لفظي الله والإنسان والإيمان وغيرها.

واتبعت كثير من الدراسات القرآنية نهج إيزوتسو في التعامل مع مفردات قرآنية، وكان كتابه: مفهوم الإيمان في علم الكلام الإسلامي مثيراً إلى درجة كبيرة بحيث صار نموذجاً في التعامل مع المفاهيم القرآنية. وأظهرت الورقة أن المفهوم المركزي في الخطاب القرآني والذي هو التوحيد وفق رأي إيزوتسو لا يبدو مقنعاً، لأن القرآن الكريم يتحدث عن العقيدة بشعبها الثلاث: الوحدانية والنبوت والمعاد، كما يتحدث عن الأحكام والتشريعات بصورة تتداخل فيها الموضوعات العقائدية مع التشريعية بانسجام وترابط، كما أن تمسكه ببعض المفاهيم المفتاحية حجب رؤية الموضوعات الكبيرة، ولم يضيف جديداً إلى موضوعات الدراسات القرآنية من حيث المضمون وإن كان منهجه لا يخلو من تعقيد وطرافة وجاذبية خاصة لغير المسلمين.

وربما فاق استنثار لاحق الحجم الطبيعي للمنهج الذي اتبعه إيزوتسو نفسه، إذ رأى بعض الباحثين من قرائه المعجبين زوايا استحققت إعجابهم في تصوراته فاعتمدها مفصولة عن الرؤية العامة التي حاول إيزوتسو الالتزام بها من تقصص للمحاجات الكلامية والبيانات البلاغية وآراء المفسرين وغير ذلك مما احتاجه لبيان قضية كبيرة في الفكر الإسلامي وهي قضية الإيمان على سبيل المثال، فالقارئ في هذا الكتاب يجد إيزوتسو حريصاً على قراءة معتقدات الفرق المختلفة من أشاعرة وماتريدية ومعتزلة وشيعة وخوارج من أجل التوصل إلى فهم صحيح للأبعاد السياسية لقضية الإيمان ناهيك عن الجذور الفلسفية.

ما بذله العالم الياباني إيزوتسو في مسألة خلق الكفر من جهود لم تتعد حدود العرض الممتاز لأدلة الفرق المتحاربة، وتحليل دقيق ومميز للاستدلالات التي تمت أثناء تفسير بعض آيات القرآن الكريم، لكنه في عرضه هذا لم يضيف جديداً فيما يتعلق بالمفاهيم المفتاحية لهذه القضية، وإنما استخلص هذه المفاهيم براءة وجودة، ولم يختتم القضية برأي كأي متكلم أو فيلسوف يعرض لقضايا عقائدية، ولم يرجح قولاً على قول، ولم تسعفه ثقافته الواسعة بالديانات أن يعرض لأوجه التشابه والتضاد بين آراء المتكلمين المسلمين ونظرائهم من لاهوتيين اليهود والنصارى، لبيان أوجه القوة والضعف والقصور في تناول قضية فلسفية معقدة.

## Noble Qur' n and its Key-Concepts: a Study in the Theological Applications of Izutsu

Semantics has been one of the most important approaches among many linguistic theories that have flourished in the last century. Since positivists had founded some of those theories, the outcome represented an over-all positivist approach. However, some of these theories have been found applicable to Islamic studies. The Japanese linguistic and thinker, Izutsu, employed the tools of semantics to Qur' nic interpretation and contributed seminal writings in this field that dominated the methods of some Muslim scholars. Therefore, his semantic analysis of theological issues deserves to be evaluated and acknowledged. Prof. Izutsu contends that his analysis exceeded the historical philology and thus it has made a real contribution to the study of the basic structure of Islam. This article aims to highlight and critically examine his implementation of key concepts, conceptual framework and semantic analyses objectively.

\*\*\*\*